حقيقة الغلو في الدين

بقلم الشيخ علي الشبل

أولاً- حدُّ الغلو:

بالرجوع إلى المصادر والمعاجم تبين أن الغلو هو: مجاوزة الحد وتعديه.

- قال الجوهري في ((الصحاح)):

(غلا في الأمر يغلو غلوا ، أي جاوز فيه الحد) أهـ.

- وقال الفيروز أبادي في ((القاموس)):

(غلا غلاء فهو غال وغلى ضد الرخص... وغلا في الأمر غلوّا جاوز حده) أهـ.

- ووافقه الزبيدي في ((تاج العروس)).

- وقال أن منظور في ((اللسان)):

(...أصل الغلو الارتفاع ومجاوزة القدر في كل شئ.... يقال غاليت في صداق المرأة أي أغليته. ومنه قول عمر: (ألا لا تغالوا في صداق النساء). أي لا تغالوا في كثرة الصداق.

وغلا في الدين والأمر يغلوا غلوا ، جاوز حده.

قال: قال بعضهم: غلوت في الأمر غلوا وغلانية وغلانيا إذا جاوزت فيه الحد وأفرطت فيه ، ويقال للشيء إذا ارتفع غلا.

قال ذو الرمة:

فما زال يغلو حبُّ ميّةَ عندنا ويزداد حتى لم نجد ما نزيدها

- وقال الفيومي في ((المصباح المنير)): (.. وغلا في الدين من باب قعد وتصلب وتشدد حتى جاوز الحد، وفي التنزيل ﴿ لا تغلوا في دينكم ﴾[1] وغال في أمره فعالا بالغ)[2] أهـ.

- وقال ابن فارس في ((المعجم)): (غلوى: الغين واللام والمعتل أصل صحيح في الأمر يدل على ارتفاع ومجاوزة قدر، يقال غلى السعر يغلو غلا وذلك ارتفاعه، وغلا الرجل في الأمر غلوا إذا جاوز حده) أهـ. وكذا نحوه في ((المجمل))[3].

مما سبق يتبين أن الغلو في سائر استعمالاته يدل على الارتفاع والزيادة ومجاوزة الأصل الطبيعي أو الحد المعتاد.

ومنه قوله ﷺ في حديث أبي ذر:((...أي الرقاب أفضل قال: أغلاها ثمنا وأنفعها عند أهلها))[4] متفق عليه.

وحديث النعمان بن بشير ﷺ أن النبي ﷺ قال:((أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه))[5] متفق عليه.

- فغلى الثمن: إذا ارتفع وزاد سعره.

- وغلت القدر: إذا زادت حرارته وارتفعت.

- وغلا في مشيه: إذا أسرع وزاد فيه.

- وتغالى اللحم: ارتفع وذهب ومنه قول لبيد بن أبي ربيعة:

---

(١) هذه جزء من آية (النساء: ١٧١) و (المائدة: ٧٧).

(٢) كلهم في مادة غلا.

(٣) في "المجمل مادة غلا والمعجم مادة غلوى.

(٤) رواه البخاري في كتاب العتق- باب أي الرقاب أفضل، ورواه مسلم في كتاب الإيمان- باب كون الإيمان بالله أفضل الأعمال (رقم ٨٤).

(٥) رواه البخاري في كتاب الرقاق- باب صفة الجنة والنار، ومسلم في كتاب الإيمان- باب أهون اهل النارعذابا (رقم ٢١٣).

فإذا تغالى لحمها وتحسرت وتقطعت بعد الكلال حذافها

وهكذا غالبا، سوى بعض اشتقاقاتها التي توضع علما على شئ معين فمضانها كتب المعاجم اللغوية.

فعليه: فالحد اللغوي لكلمة غلو هو: الزيادة ومجاوزة الحد المألوف.

حقيقة الغلو:

لما كان المعنى الاصطلاحي يقوم على المعنى اللغوي، ويخصص عموم إطلاقه، رجعنا على النصوص الواردة في الغلو من الكتاب والسنة.

❁ **فمن الكتاب:**

قوله تعالى ﴿ يـأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق... ﴾ اسورة النساء/١٧١.

- فقد قال القرطبي في تفسيره ٢١/٦ لما ذكر المعنى اللغوي:((ويعنى بذلك فيما ذكره المفسرون: غلو اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم، وغلو النصارى فيه حتى جعلوه ربا، فالإفراط والتقصير كله سيئة وكفر.

ولذلك قال مطرف بن عبد الله الشخِّير: الحسنة بين سيئتين. وقال الشاعر:

لا تغل في شئ من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمورÑ ذميم)) أ.هـ

- وكذا قال جمع من المفسÑíن منهم: ابن جرير في جامعه (٤٦/٤)، والبغوي في معالم التنزيل (٣١٣/٢)، وابن كثير في تفسيره (٥٨٩/١)، وأبو حيان في بحره (٤٠٠/٣)، والزمخشري في كشافه (٣١٥/١)، وابن طيفور الجاوندي (٥٦٠هـ) في عين المعاني (١٣٤٨/٤)، وعبد الرحمن العليمي الحنبلي (٩٢٨هـ) في فتح الرحمن (٧٥٥/٢)، وصديق حسن خان في فتح البيان (٤١٥/٢)، والشوكاني في فتح القدير (٥٤٠/١)، ومحمد رشيد رضا في تفسيره (٦٧/٦)، وعبد الكريم الخطيب في تفسيره (ص ١٠١٧) (وإن كان القول عند بعضهم محتمل)، وحكى ابن الجوزي في زاد المسير (٢٦٠/٢)، والماوردي (٤٥٠هـ) في تفسيره (ص١١٠٦)، وذكر اختلاف العلماء في تفسير الآية بذكر قول من خصص الآية

بالنصارى وحدهم، والذي عليه جمع من المفسرين، وفي بعض من سبق الإحالة إليهم، فالذي أفهمه من هذه الآية ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ﴾ عمومها لجميع أهل الكتاب من يهود ونصارى؛ إذ العبرة بعموم اللفظ ودلالة السياق تدل عليه أيضا، فإن النصارى زادوا وجاوزا الحد في نبي الله عيسى فرفعوه عن منزلته، وأن اليهود جفوا وفرطوا في حقه فغلوا في الجفاء والتفريط وزادوا فيهما، حتى قذفوا أمه الطاهرة العذرية، بما برأها الله تعالى منه.

ومن احتج بخصوص الآية بالنصارى بتقديم سياق الآيات السابقة لها في اليهود، وهذه الآية آخرها يدل على قول النصارى وكفرهم، وزعمهم بالأكاذيب الثلاثة.

❁ فيجاب عليه:

بما سبق من عموم لفظه أهل الكتاب، وانطلاقه إلى اليهود والنصارى ما لم توجد قرينه ولم توجدا وباستمرار السياق في بني إسرائيل في هذه الآية وما قبلها يدل على العموم من اليهود والنصارى. إذ غلا في دينه كما سيأتي تحديد الغلو، وقول كل منهم على الله غير الحق، فليس عيسى رباً أو ابناً لله، أو ثالث ثلاثة- وليس هو ابن فحش وزنا وبغي.

ثم إن آخر الآية يختص في النصارى من قول الله تعالى ﴿....ولا تقولوا ثلاثة ﴾ وذلك لعظم جرمهم في التوحيد، ولأن عيسى نبيهم وهاديهم إلى الفطرة السليمة والملة القويمة. وأنهم هم من ادعوا فيه تلك الدعوى الظالمة، فكان آخر الآية مخصوصا بالنصارى لذلك. ومنه آيات عديدة جاءت في النهي عن الطغيان وهو غلو في الغي كما قال تعالى في آخر سورة طه لبني إسرائيل ﴿ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ﴾ ، وقوله عن فرعون وملئه في غير ما آية ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ وقال عن الخاسر صاحب الجحيم ﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا...﴾ الآية، وقال في آخر سورة هود: ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ﴾ .

❁ ومن السنة:

- ما رواه الأربعة من قول عمر(ألا لا تغالوا في صُدق النساء)[1].

- ولما رواه أبو داود عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ((لا تغالوا في الكفن، فإنه يسلبه سلبا سريعا))[2].

- فقد قال صاحب ((المنهل العذب المورود)) (٨/٣١٣-٣١٤): (أي لا تبالغوا في ثمنه، ولا تجاوزا الحد الشرعي فيه، فان الكفن يبلى على الميت سريعا فلا ينتفع به، والمغالاة في إضاعة المال. قال: باب كراهية المغالاة في الكفن: أي الزيادة عن الحد الشرعي، ويقال غاليت في الشيء وغلوت فيه إذا جاوزت فيه الحد) أ.هـ قال البيهقي وهو ضعيف فيه عمرو بن هشام تكلموا فيه. وكذا قال نحوه في عون المعبود (٨/٤٢٩-٤٣٠): وضعف إسناده ونقل عمن ضعفه .

- ومما ورد في السنة أيضا: ما رواه أحمد بإسناده عن عبد الرحمن بن شبل قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((اقرءوا القرآن ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به))[3]

- وحديث ابن عباس ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: القط لي حصى، فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخذف، فجعل ينفضهن في كفه ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، ثم قال: يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين فانه أهلك من كان

---

(١) رواه أبو داود في كتاب النكاح- باب الصداق، والترمذي باب ما جاء في مهور النساء، والنسائي في باب القسط في الأصدقة، وابن ماجه في باب صداق النساء (رقم ١٨٨٧). كلهم في كتاب النكاح.

(٢) الفتح الرباني (١٨/٢٨).

(٣) الفتح الرباني (٨١/٢٨).

قبلكم الغلو في الدين" . رواه أحمد وابن ماجة والحاكم وغيرهم[1].

- وفي حديث أبي هريرة في البخاري مرفوعاً: ((لن ينجي أحدا عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال :ولا أنا ألا أن يتغمدني الله برحمته. سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشئ من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا))[2] .

فمما سبق يتبين أن الكتاب والسنة تخصص عموم اللغة، في أن الغلو هو:

((الإفراط في مجاوزة المقدار المعتبر شرعا في أمور الدين)).

فالنصارى جاوزوا المقدار في حق عيسى عليه السلام، وأنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فأفرطوا إلى القول بألوهيته وربوبيته. واليهود جفوا في حقه فزادوا في التفريط المجاوز إلى القول بأنه ابن زنا، وقذفوا أُمه. حيث غلوا في جفائه.

وكذلك حال المعطلة الذين غلوا في التنزيه فأفرطوا، وحال المشبّهة الذين غلوا وزادوا في الإثبات حتى غلوا في الإثبات. وسيأتي الكلام عليهم في موضعه إن شاء الله وعلى هذا فقس.

---

(١) رواه أحمد في المسند كما في الفتح الرباني (١٢/١٦٩)، كتاب الحج والعمرة- باب سبب مشروعية رمى الجمار وحكمها، ورواه النسائي-كتاب المناسك- باب قدر حصى الحذف، وكذا ابن ماجه في باب التقاط الحصى،ورواه الحاكم في مستدركه (١/٤٦٦) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في تلخيصه عليه وقال النووي في المجموع (٨/١٢٧): صحيح رواه البيهقي بإسناد حسن صحيح وهو على شرط مسلم، من رواية عبد الله بن عباس عن أخيه الفضل. ورواه النسائي وابن ماجه بإسنادين صحيحين، إسناد النسائي على شرط مسلم ....أهـ. وخرجه ابن حجر في التلخيص الحبير (٧/٣٨٧)، حيث حقق من كان رديف النبي صلى الله عليه وسلم والتقط له الحصى: عبد الله أم الفضل، وصوب أنه الفضل- وهو تحقيق نفيس، وكذا كلام النووي السابق. وفي فتح الباري (١٣/٢٩١): وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم من طريق أبي العالية عن ابن عباس.وقال شيخ الإسلام في ((الوصية الكبرى)): هو حديث صحيح. ونقل عنه الشيخ صالح البليهي رحمه الله في ((السلسبيل في معرفة الدليل)) (١/٣٦٧) أنه قال على شرط مسلم. ولم اقف عليه.

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق بهذا اللفظ، باب القصد والمداومة على العمل. وأخرجه أيضا الإمام مسلم في صحيحه في كتاب صفات المنافقين- باب لن يدخل الجنة أحد بعمله (رقم ٢٨١٦).

علاقة الغلو بالإفراط والتطرف:

الغلو في الحقيقة أعلى مراتب الإفراط في الجملة. فالغلو في الكفن هو المغالاة في ثمنه والإفراط فيه.

والغلو أخص من التطرف؛ إذ أن التطرف هو مجاوزة الحدِّ والبعد عن التوسط والاعتدال إفراطا أو تفريطا. أو بعبارة أخرى سلبا أو إيجابا زيادة أو نقصا، كما سبق في قول القائل:

لا تغلُ في شئ من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

فالغلو أخص من التطرف باعتبار مجاوزة الحد الطبيعي في الزيادة والنقص في حال النقص يسمى غلوا إذا بالغ في النقص، فيقال غلا في النقص، كما سبق في قول اليهود في المسيح بن مريم عليهما السلام.

الفرق بين التزام النصوص والغلو:

في الواقع لا تلازم بين التمسك بالنصوص والغلو فقد كان الصحابة رضي الله عنهم أشدَّ الناس تمسكا والتزاما لنصوص الشريعة مطلقا ومع هذا لم يحصل منهم غلو أو تشديد- إلا في قضايا عينية على حياة النبي ﷺ أرشد عليه السلام أصحابه إليها[1] وعلّمهم وبيّن لهم طريق العبادة المعتدل، فانتهت. وسببه هو موافقة هذا الالتزام منهم رضي الله عنهم لعلم صحيح، وفهم سليم، وهمة حريصة على العلم والبصيرة، فنجوا من الغلو فضلا عن الاستمرار فيه لكن لما بعد الناس عن زمان الأفاضل، وصارت غربة الدين، وأطبق الجهل على كثير من أهل الإسلام، وصار المتمسك بسنة المصطفى ﷺ والعاض عليها بنواجذه منبوذا مستهزئا به في تلك المجتمعات، وأطلقوا عليها عبارات النبز كالمتزمتين

(١) كقصة عبد الله بن عمرو بن العاص في إطالة الصوم، المتفق على صحتها. رواها البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب كم يقرأ من القرآن، ومسلم في كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، (رقم ١١٥٩)، وكحديث عبد الله بن الشخّير في وفد بني عامر وفيه: فقلنا أنت سيدنا فقال السيد الله تبارك وتعالى فقلنا وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا فقال ﷺ:((قولوا بقولكم أو ببعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان)) رواه أبو داود والنسائي بأسانيد جيدة. وما قوله عليه السلام ذلك إلا سدا لطريق الغلو فيه، انظر فتح المجيد (٥١٧).

والغاليين والمتطرفين والأصوليين ...

ونحوها من الألقاب التي روجتها بعض وسائل الإعلام. والواقع أن التمسك بنصوص الكتاب والسنة، وفهمهما فهما صحيحا، يعتبر عند هؤلاء المتهاونين بأحكام الشريعة الغافلين عنها، غلوا وتطرفا، وذلك بالنظر إلى ما هم عليه من تفريط ظاهر، وقصور في التزام منهج الإسلام، جلي ملموس.

ولنأخذ مثالا يوضح ما سبق: فدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية اتهمت من كثير من الناس: علماء وغيرهم بتكفير الناس- الذي هو مظهر من مظاهر الغلو البارزة- أو أنهم خوارج... ونحوها من ألقاب تفيد مجاوزة اعتدال الإسلام وسماحته، ينبزوهم بألفاظ هي في الشريعة وصف على أقوام متشددين لا فقه لهم ولا نظر[1]، وهي من ذلك براء براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام، لكن ما حيلة من شرق بها إلا ذلك.

- والملاحظ أن المتمسكين بمدلولات النصوص الشرعية يكونون غلاة متشددين بنسبتهم إلى المفرطين الذين يحملون الإسلام وصفا، وعند نسبتهم إلى ميزان الشريعة نجد عندهم معنى التمسك المطلوب، وهو الالتزام المطلوب، وهو الالتزام بأحكام الكتاب والسنة.

فالمقصرون يلمزون المتمسكين بالغلو والتطرف على أن ما هم عليه هو اعتدال الإسلام وتوسطه، وما أظهروه هو الاعتدال، وهو في الحقيقة ليس كذلك؛ إذ هو التقصير والتفريط في بعض شعائر الإسلام وأحكامه؛ ولا يخفى أن من يتهم البعض بالتطرف أو الغلو، كون غايته التنفير والتحذير منهم ليس كونهم متجاوزين لحدود الشريعة ووسطية الإسلام كما فيمن اتهم دعوة الشيخ السلفية الإصلاحية بذلك.

يعني أن هذه الدعاوى ليست من باب الأسماء والأحكام، أو لتبيين معان شرعية- بقدر ما هي لأغراض وأهواء ذاتية أو محدودة. فتكون بذلك من تحميل مصطلحات الشارع ما لا

---

(١) انظر الشبهات التي أثيرت حول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب- وفيها بحث د. عبد الرحمن عميرة وغيره في أسبوع الشيخ محمد. المجلد الثاني. وكذا ((دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب)) للدكتور العبد اللطيف.

تحتمل، ومن استعمال المعاني الشرعية الواردة في الأغراض الشخصية الضيقة والغايات السياسية المحدودة!

ثانيا- تاريخ الغلو ونشأته عند المسلمين:

الغلو قديم في البشرية وجد قبل إرسال الله تعالى الرسل، وذلك بعد آدم عليه السلام بزمن إلى أن أرسل الله رسوله نوحا عليه السلام. فلقد غلا قوم نوح قبل مجيئه إليهم بأقوام كانوا صالحين، فغلو في محبتهم حتى عبدوهم من دون الله، ثم أنهم صوروا لهم أصناما تكون رمزا لعبادتهم حتى ظهرت بدعتهم إلى جاهلية العرب قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم. قال تعالى ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾ [سورة نوح/٢٣].

أخرج البخاري بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما، قال في هذه الآية:((صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ودّ كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواعا فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطفان...، وأما يعوق فكانت لهمذان، وأما نسرا فكانت لحمير لآل ذي الكلاع- أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوصى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت)) أهـ[1].

والأنصاب جمع نصب وهو الصنم ينصب للميت لتخليد ذكره.

هذه في الحقيقة تمثل نوعا من الغلو، في باب الغلو في الأشخاص.

ثم وجد بعد ذلك نوع من الغلو عند بني إسرائيل من يهود ونصارى كما سبق في قوله تعالى ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم...﴾ [النساء/ ١٧١، المائدة/٧٧].

---

(١) - في كتاب التفسير - باب قوله تعالى ﴿ ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث....﴾ الآية.

كما وجد الغلو في التكفير عند كل من اليهود للنصارى والعكس حتى أدى بهم الأمر إلى استباحة دم كل منهما الآخر[1].

فاليهود تقر القتال لأنه مرتبط بوجودهم وبقائهم وأنهم أبناء الله وأحباؤه وما سواهم خدم لهم مسخرين لأجلهم وأميين.

والنصارى تقرر أنها وارثة اليهودية بشرعية عيسى عليه السلام. كما نقموا على اليهود لأنهم صلبوا عيسى عليه السلام- كما يظنون!

﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلما يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق ﴾ الآية.

نشأة الغلو عند المسلمين:

ذكرنا وجود حالات فردية في حياة النبي ﷺ في الغلو، لكنها لا تذكر لقلتها ولعدم استمراريتها ولأنها لا تمثل عقيدة أو منهجا؛ بل سرعان ما تزول عند معرفة الصواب، هو أمر طبيعي في أي دعوة؛ خاصة دعوة الإسلام. وسببها والله أعلم التباين والاختلاف في فهم أحكام الشريعة ومقاصدها وكذلك اختلاف قوة الدافع نحو هذه الدعوة وأحكام شرعها. لكن النبي ﷺ استطاع أن يُفَقّه أصحابه ويعلمهم ليصححوا ما قد يحصل من بعضهم من غلو- إن جاز التعبير- كما سبق في الأمثلة؛ منهم الثلاثة الذين تقالوا عبادته صلى الله عليه وسلم، لكن سرعان ما رجعوا إلى الاعتدال لما فقهوا[2].

ولما قتل عثمان ﷺ ظلما وعدوانا وغدرا، ظهرت الفتن وثارت أعاصير الشبهات وأقبلت

---

(١) تفاصيل هذا في مقال علمي في مجلة الفيصل عدد ١٣٤- شعبان ١٤٠٨هـ تحت عنوان (**التطرف الديني عند بني إسرائيل**) لعبد الرحمن عبد المحسن- عزز أقواله بنقول من العهدين القديم والحديث (ص٨٧-٩١)، وانظر (**الإلحاد وعلاقته باليهود والنصارى**) د. محمد الشويعر في مجلة البحوث عدد ١٤ عام ١٤٠٥ هـ (ص٢٠٩).

(٢) هذه القصة وردت في حديث متفق عليه من رباعيات الشيخين. رواه البخاري في كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح، ومسلم في كتاب النكاح- باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه (رقم ١٤٠١).

الفتن مهرولة يحمل رايتها الغلو والتطرف. فكان غلو الخوارج وتشددهم وخاصة في التكفير وموقفهم من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ثم ظهرت غالية السبائية- نسبة إلى عبد الله بن سبأ أول من أوقد الزندقة في الإسلام في ذات علي ﷺ. فقد قال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في مختصر سيرة الرسول ﷺ (ص ٤٣٤):

(وفي أيامه- يعني عليا- خرجت المغالية وادعوا أن في علي الإلهية، قال الحافظ ابن حجر: ورد من طريق عبد الله بن شريك العامري عن أبيه قال: قيل لعلي إن هنا قوما على باب المسجد يزعمون أنك ربهم، فدعاهم وقال لهم: ويلكم إنما أنا مثلكم آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون، إن أطعت الله أثابني وإن عصيته خشيت أن يعذبني فاتقوا الله وارجعوا! فأبوا! فلما كان الغد غدوا عليه، فجاءه قنبر فقال: قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام فسأل فأدخلهم. فقالوا كذلك، فلما كان اليوم الثالث قال: لئن قلتم ذلك لأقتلنكم بأخبث قتلة فأبوا إلا ذلك.

فقال: يا قنبر ائتني بفعلة معهم مرورهم- عمالا معهم أدوات حفرهم-فخدّ لهم أخدودا بين المسجد والقصر وقال لهم: احفروا فأبعدوا في الأرض وجاء بالحطب فطرحه في النار في الأخدود وقال: إني طارحكم فيها أو ترجعوا فأبوا أن يرجعوا. فقذف بهم حتى احترقوا وقال:

لما رأيت الأمر أمرا منكرا أوقدت ناري ودعوت قنبرا

وإسناده حسن. وفي الصحيح أن ابن عباس لما بلغه تحريقهم قال: لو كنت أنا لم أحرقهم لقول النبي ﷺ: ((لا تعذبوا بعذاب الله)). ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ :((من بدل دينه فاقتلوه)) [1] فبلغ ذلك عليا فقال: صدق ابن عباس أ.هـ.

وهذه المحاولة مشهورة في التاريخ ذكرها جمع من أهل المقالات- ولولا الإطالة لأحلت

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد- باب لا يعذب بعذاب الله.

إلى كتبهم- وقد وقفت على قول لبعض المعاصرين[1] ينكر فيه هذه القصة ويدعي أنها:

(خبر مختلق من أساسه ولم يرد على صورة فيها ثقة، في كتاب معتبر من كتب التاريخ... وينتهي بنا المطاف إلى فائدة عظيمة هي أن السبئية ركام من التهم ألقيت على جماعة... إن عن قصد أو عن غير قصد)[2] أ.هـ.

قلت- من فمك أدينك؛ فهذه القصة ليست مختلقة بل توارد عليها جمع من المؤرخين وكتاب المقالات-كما ذكرت بعضا منهم في كتابك. والأعجب من هذا أن رويت بإسناد حسن كما قاله الحافظ بن حجر. بل حديث ابن عباس في البخاري قرينة واضحة على وقوع تلك الحادثة. وعليه فلا مدخل من هنا على تكذيب هذه الحادثة لمن نظر وتعقّل. وفي صحيح الحديث لم يتكدر.

وبعد هذا ندرك كيف كانت هذه الطغمة الفاسدة- السبئية أول مظاهر الغلو الحقيقي وأكثرها رواجا على غلاة الرافضة خاصة، وباقي الفرق الإسلامية عامة. وحسبك أن تنظر إلى كتاب واحد من كتب الملل والمقالات لترى !.

ولم نعتد بغلو الخوارج على أنه أول للآتي:

- أن غلوهم أخف بكثير من غلو هؤلاء السبئية بعلي ﷺ.

- الخوارج وقعوا فيما وقعوا فيه عن سفه ونقص في عقولهم وبصيرتهم وعلومهم[3].

---

(١) هو د. كامل مصطفى الشيبي في كتابه ((الصلة بين التشيع والتصوف)) (ص٩٠-٩١)، بل تعدى إلى أبعد من هذا، فأدعى أن ابن سبأ هو عمار بن ياسر ﷺ وحاول التوفيق بين صفات ابن سبأ الموجودة في كتب التاريخ وصفات عمار وموافقتها انظر (ص٣٨-٤٥، ٨٤-٩٢)؛ ومناقشة هذا الزعم يحتاج إلى بسط في غير هذه المناسبة. وهذا القول ظهر أخيرا من أعداء الإسلام من المستشرقين وأذنابهم.[ادعى بعض الشيعة المعاصرين أن شخصية ابن سبأ شخصية مخترعة، وقد تبعهم على هذا طه حسين وأذنابه وقد ردّ على هذه المقولة جمع من أهل السنة، وأن القصة مذكورة في كتب الشيعة أنفسهم.(المجلة)]

(٢) كما في (ص٨٧-٩٠).

(٣) بدليل أنه لما حاجّهم ابن عباس في دلائلهم وأتى بنظائر ما أبطلوه، مسألة تحكيم الرجال في آية النساء، وسبى أم المؤمنين، واستحلال مال المسلمين ودمائهم؛ رجع منهم كثير- اختلفوا في عددهم- وأنكر الباقون مناظرة ابن عباس لأنه من قريش ولأنهم كما قال تعالى ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ [سورة الزخرف/٥٨]

فلم يكن قصدهم إفساد الدين والمسلمين- قطعا- كما هو الحال عند غلاة الرافضة. فعليه فأجلى مظاهر الغلو ومنشأه عند المسلمين هو غلو السبائية نسبة إلى عبد الله بن سبأ الهمذاني اليهودي الصنعاني المكنى بابن السوداء- الذي أسلم في عهد عثمان وقاد الفتنة بين الصحابة وعلي ومن معه. وكان ناشر مقولة الغلاة في تأليه علي- وقد نفاه علي إلى ساباط المدائن حيث لم يصرح أمامه بقوله في إلاهيته.

إذاً، يمكن القول بأن الغلو في الإسلام بهذا الفكر، وتلك العقائد، إنما كان بسبب عبد الله ابن سبأ اليهودي أبعده الله.

علاقة نشأة الغلو عند المسلمين بالعقائد القديمة:

إذا تقرر أن أول غلو عند المسلمين، وأثر على القرون اللاحقة هو غلو عبد الله بن سبأ ومن أفسد في ذات علي ﷺ وان ابن سبأ شخصية حقيقية تكاد مصادر العقائد تجمع على أنه أول من دعا إلى فكرة تقديس علي ثم آل بيته[1] .وأنه يهودي أصلا-وكانت بعض العقائد القديمة موجودة عند فرق الإسلام والغلاة، خاصة الرافضة- لما كان هذا موجودا جعل بعض المعاصرين يبحث في نظريات الغلو عند المسلمين من أين جاءت؟ فمن قائل أنها من أصل هندي أو مجوسي أو يهودي أو نصراني أو من أصل عربي[2].

والواقع أن ما عند الغلاة هو حصيلة أغلب تلك العقائد- مع التأثر الملحوظ باليهود- خاصة أنه دين أول فرقة غالية في الإسلام.

وهذا قول أعرف الناس بالرافضة وهو الإمام الشعبي التابعي الجليل (١٠٤هـ). فقد روى أبو القاسم اللالكائي الطبري بسنده إلى عبد الرحمن بن مالك بن مغول عن أبيه قال((قال

---

(١) كما في ((نشأة الفكر الفلسفي)) (٦٨/١).

(٢) بحث هذه القضية جمع من المعاصرين، منهم د. عرفان عبد الحميد في ((دراسات في العقائد الإسلامية)) (٣٤-٤٣)، والسامرائي في ((الغلو والفرق الغالية)) (٧٩-٨٠، ١٢٥-١٨٠)، ود. علي النشار في ((نشأة الفكر الفلسفي)) (٦٨/١)، والجزء الثاني من ((أثر اليهود على مذهب الرافضة))، ونظلة الجبوري في ((حركة الغلو وأصولها الفارسية)). وكامل الشيبي في ((الصلة بين التصوف والتشيع)) (ص١٢٨)، وأحمد أمين في ((ضحى الإسلام)) (٢٧٨/٣)، ومحمد أبو زهرة في ((تاريخ المذاهب الإسلامية)) (٣٧/١-٣٨)، وغيرهم.

الشعبي: يا مالك لو أردت أن يعطوني رقابهم عبيدا أو أن يملؤوا بيتي ذهبا -يعني الرافضة- على أن أكذب لهم على عليّ لفعلوا، ولكن والله لا أكذب عليه أبدا. يا مالك: إنني قد درست هذه الأهواء كلها فلم أرَ قوما هم أحمق من الخشبية- من فرق الرافضة-لو كانوا من الدواب لكانوا حُمراً، ولو كانوا من الطير لكانوا رخما. وقال أحذرك الأهواء المضلة وشرها الرافضة؛ وذلك أن من اليهود يغمصون الإسلام لتحيا ضلالتهم، كما يغمص بولس بن شاؤل ملك اليهود والنصارى، لم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة من الله، ولكن مقتا لأهل الإسلام، وطعنا عليهم فاحرقهم علي بن أبي طالب بالنار، ونفاهم من البلدان: منهم عبد الله بن سبأ نفاه إلى ساباط، وعبد الله بن يسار نفاه إلى خازر وأبو الكروس وابنه إلى الجابية.

وذلك أن محنة الرافضة محنة اليهود: قالت اليهود لا يصلح الملك إلا في آل داود وقالت الرافضة لا تصلح الإمامة إلا في آل علي.

وقالت اليهود: لا جهاد في سبيل حتى يخرج المسيح الدجال، أو ينزل عيسى من السماء وقالت الرافضة: لا جهاد حتى يخرج المهدي، ثم ينادي منادي من السماء.

واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم. وكذلك الرافضة.

والحديث عن رسول الله ﷺ: ((لا تزال أمتي على الفطرة ما لم يؤخروا المغرب حتى تشتبك النجوم))

واليهود يولون عن القبلة شيئا، وكذلك الرافضة.

وقد أمر رسول الله ﷺ برجل قد سدل ثوبه فقمصه عليه أو عطفه عليه.

واليهود حرفوا التوراة، وكذلك الرافضة حرفوا القرآن.

واليهود يستحلون دم كل مسلم، وكذلك الرافضة.

واليهود لا يرون الطلاق ثلاثا شيئا، وكذلك الرافضة.

واليهود لا يرون على النساء عدة، وكذلك الرافضة.

واليهود يبغضون جبريل ويقولون هو عدونا من الملائكة، وكذلك صنف من الرافضة-

هم الغرابية- يقولون غلط بالوحي على محمد.

وفضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلتين:

سئلت اليهود من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى.

وسئلت النصارى من خير أهل ملتكم ؟ قالوا: حواريو موسى.

وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم ؟ قالوا: أصحاب محمد.

أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم، فالسيف مسلول عليهم إلى يوم القيامة لا يثبت لهم قدم ولا تقوم لهم راية ولا تجتمع لهم كلمة، دعوتهم مدحوضة وجمعهم متفرق كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله عز وجل) أهـ[1].

واليك ما قاله أبو بكر الباقلاني في كتابه ((فضائح الباطنية))- يسر الله بعثه- بواسطة شرح الطحاوية ص ٩٠ قال فيه:

(ولهذا كان الرفض باب الزندقة كما حكاه القاضي أبو بكر الطيب عن الباطنية وكيفية إفسادهم لدين الإسلام قال: فقالوا للداعي: يجب عليك إذا وجدت من تدعوه مسلما أن تجعل التشيع عنده دينك وشعارك واجعل المتصل من جهة ظلم السلف لعلي وقتلهم الحسين والتبرؤ من تيم وعدي- قبيلة أبي بكر وعمر- وبني أمية وبني العباس- مع أنهم من آل البيت- قل بالرجعة وان عليا يعلم الغيب-يفوض إليه خلق العلم ! .وما أشبه ذلك من أعاجيب الشيعة وجهلهم، فإذا أنست من بعض الشيعة عند الدعوة إجابة ورشدا، أوقفته

---

(١) ذكر ابن تيمية لهذا الأثر طريقتين في منهاج السنة (١/٢٢-٣٦)، أحدهما عن ابن شاهين بسنده إلى الشعبي والآخر من طريق أبي عمرو الطلمنكي إليه، وساق لفظيهما بتمامهما. وأشار إلى رواية اللالكائي هذه وقال بعدها. فهذا الأثر روي من وجوه متعددة يصدق بعضها بعضا، وبعضها يزيد على بعض عن عبد الرحمن بن مالك -ضعيف-، ثم قال: وذم الشعبي لهم ثابت من طرق أخرى. كذا في المنهاج. وقال محقق كتاب اللالكائي في (رقم ٢٨٢٣)، إنه رواه الخلال بلفظ أطول من رواية اللالكائي.

على مثالب علي وولده رضي الله عنهم) أهـ[1].

وأخذ الغلاة من الرافضة عن المجوس أهل فارس- كما سيأتي في حديث أبي هريرة في الموقف من الغلو-حيث صرح النبي ﷺ أنهم يأخذون عن فارس والروم.

ومن العقائد التي تأثر بها الغلاة القول بالوصية أتى بها ابن سبأ بأن قال: أن عليا وصي رسول الله ﷺ ومن عقائد يهود أنهم يقولون أن يوشع بن نون وصي لموسى عليه السلام.

وأخذوا من اليهود التشبه- تشبه الخالق بالمخلوق- حيث قالت اليهود ﴿يد الله مغلول﴾ [المائدة/٦٤]، وقالوا ﴿إن الله فقير﴾ [آل عمران/١٨١].

(ومتقدمو الرافضة مشبهة مجسمة ومن أشهرهم هشام بن الحكم الرافضي والجواليقي)

وقالوا برفع علي إلى السماء، وكذب ابن سبأ من قال بموته، وأنه لو أتى بدماغه في صرة أو بسبعين صرة لم يصدق بموته، وأنه سينزل إلى الأرض- كقول أهل الكتاب في إيليا عليه اللام وهو عقيدة الرجعة.

وقالوا أنه فوق السحاب، وان الرعد صوته، والبرق سوطه يضرب به السحاب.

واخذوا القول بنفي القدر وان العبد يخلق فعل نفسه، وهو قول فرقة من اليهود تسمى الفروشيم[2].

واخذوا من النصارى والهنود الحلول والتناسخ[3].

---

(١) استفاد من كتاب الباقلاني الغزالي أبو حامد في ((فضائح الباطنية)) وهو مطبوع في مجلد لطيف.

(٢) كما في تاريخ المذاهب (١/١٢٥)- نقلا عن أحمد أمين من فجر الإسلام- وترجمة هذه الكلمة المعتزلة.

(٣) هذا باستقراء كتب الفرق والمقالات التي وقفت عليها- وما ذكرت إلا أهم العقائد- ونراجع على سبيل الخصوص الكلام على فرق غلاة الروافض الذين ظهر التأثير جليا بالعقائد القديمة والوثنية كالسبائية- الكيسائية- البيانية- الخطابية- النصيرية....

وانظر فيها: الملل والنحل (٢/١٢-١٣)، الفصل لابن حزم (٥/١٣٧-١٤٤)، ودراسات العقائد الإسلامية (٣٥-٤١)، =

وغيرها من العقائد التي أفسدت عليهم دينهم-ولا نخص بذلك غلاة الشيعة بل كل من أتى بكفر غال كالمعتزلة غلاة القدرية والحلولية والاتحادية والباطنية وعموم الزنادقة قبَّحهم الله!.

ثالثا: أسباب نشأة الغلو في الدين:

يتحصل من دراستي للفرق الغالية خاصة، ونشأة الغلو والشرك بين الموحدين أن الشيطان تمكن من قلوب أولئك وعقولهم وأفسدها كما أراد وسلك معهم الأساليب المختلفة، وهذا مسلكه مع عباد الله ﴿ ... إذا قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العلمين ﴾ [الحشر/١٦] فهو يضلهم ويتبرأ منهم، ويكون قوله يوم القيامة، كما قصه الله علينا في سورة إبراهيم ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر.... ﴾ الآية.

وسأحاول هنا تعداد الأسباب التي أدت بأقوام أو أفراد، إلى الانحراف عن المنهج الوسط القويم إلى الغلو والضلال. فمن هذه الأسباب:-

١- الجهل بأحكام الشرائع السماوية وقلة البصيرة فيها أو مخالفتها ولو بمقصد شرعي ابتداءاً- كما حصل لقوم نوح عليه السلام، وهذا يؤدي إما إلى فهم زائد عن الواجب وهو الغلو والإفراط، أو عكسه تفريط وغلو فيه عن الواجب.

٢- دخول كثير من أهل الأديان السابقة الإسلام بقصد الكيد له، وإفساده- كما افسد عليهم دينهم بفتح بلدانهم ونشر الإسلام فيها- فكان هذا من المنافقين والزنادقة أقوى وسيلة لتقويض دعائم الدين وتهوين أصوله ببث العقائد المغرضة فيه. وتأمل النقل السابق عن الباقلاني في فضائح الباطنية.

ومقالات الإسلاميين (١/٦٦-٨٨)، والزينة للرازي (٣٠٣-٣٠٧)، واعتقادات فرق المسلمين (٧٠-٧١)، والفرق بين الفرق (١٧٧ وما بعدها)، ونشأة الفكر الفلسفي (١/ الفصل الأول والثاني والرابع)، والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان (٦٧-٨٥)، والتبصير في الدين الباب الثالث عشر (١٢٣-١٤٨)، وتاريخ المذاهب الإسلامية (١/٣٨-٤٣، ٥٨-٥٩)، والفوائد المجتمعة في بيان الفرق الضالة المبتدعة، وبيان الفرق الضالة لليازجي، والنواقض لظهور الروافض للبرزنجي- وهي مخطوطة مصورة عندى -والفرق المفترقة للأفندي، والباكورة السليمانية وغيرها.

وكذلك ما سبق هذا من حنق اليهود وغيرهم من المجوس والنصارى على الرسول ﷺ وصحابته- كما هو معروف في سيرتهم بالمدينة والجزيرة.

٣- الاعتماد على مصادر مغايرة لمصادر الشريعة الإسلامية في التحاكم إليها كالعقول- الفاسدة- والمنطق والفلسفات الكلامية العقيمة التي نزع ما فيها من خير. واعتبر بحال المعطلة وغلاتهم وأمثالهم.

٤- التعصب الأعمى، والتقوقع على المعتقد القديم، تعصبا يكون معه رد ما عند المخالف ولو كان حقا، بل وطرح الأدلة القطعية وعدم الاعتداد بها- وهي أدلة الكتاب والسنة-أو صرف الهمة إلى الفروع وبناء الولاء والبراء عليها. فيؤدي إلى ظهور مظاهر غير محمودة كالعنف في التعامل، والتزام التضييق على الناس مع قيام موجبات التسهيل ودواعيه، وأسباب التيسير عليهم؛ مثل حال الخوارج إلى هذا الوقت. ومن مظاهرها ما يحصل من مقلدة المذاهب الفقهية المتعصبين لها مقابل النصوص والأقوال الصحيحة.

٥- وجود التفريط في العمل بالأحكام الشرعية، أو فكرة معينة الذي يقضي بدوره إلى وقوع ردة فعل قوية أو العكس. فتكون بين طرفين متناقضين. كذلك وجود المنكرات جهازا علانية، بل الكفر الواضح في مجتمع معين أو فكر محدد، يولّد غلواً في مكافحته ودفعه. كالمرجئة مقابل الخوارج والمعتزلة في باب الأسماء والأحكام وكالمعطلة مقابل المشبه في الصفات ....الخ .

- أو استخدام القوة والعنف بدلا من الحكمة والحسنى يقابله زيادة التمسك بفكرة الغلاة وأقوالهم. ومثله وجود التساهل في منهج فرقة معينة يقابله التشديد في منهج فرقة مقابلة، وتأمله في واقع الفرق الإسلامية!

٦- الاستقلالية في استنباط الأحكام الشرعية دون ضابط محدد ومنهج حق من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومستند السلف الصالح واللغة العربية، وفي الوقوف على الأدلة وأقوال أهل الفقه والبصيرة فيها.

- فما حصل من واصل بن عطاء الغزال في قصة اعتزاله عن الحسن البصري نوع من هذا.

- وكذا ما حصل عند كبار المتصوفة والباطنية الذين قالوا بالنصوص السمعية

بأهوائهم لا بما تدل عليه. فالنص بدوره في فلك معين وهم في فلك آخر مغاير له.

- وكذا ما يقع من الجماعات المعاصرة وخاصة الشباب من استقلالية بالأخذ عن الكتاب والسنة دون ضابط، حتى ظهرت العبارة المشهورة:(**نحن رجال وهم رجال**) دون الاعتداد بأهل العلم والبصيرة.

٧- نقص أو انعدام الحقيقة الإيمانية القائمة على مرتكزات ودعائم قوية من نصوص الوحي، واستبصار المصلحة العامة ودرء المفاسد الطارئة، وقلة إدراك عبر التأريخ ودروس الزمان وسنن الحياة في واقع الناس.

- لكن أبرز الأسباب التي أجدها معتبرة فيعزو الغلو إليها، هي أسباب الغلو في قوم نوح وبداية الدعوة الإسلامية وبعد مقتل عثمان والغلو المعاصر، فإن هذه الأسباب هي كبرى البواعث غالبا على الغلو وآثاره.

- يعزو أحد المعاصرين[(١)] إلى الاعتماد على المتشابهات، فهل المقصود الآيات المتشابهات مقابل المحكمات أو غيرها؟ فإذا كان هذا فهذا ثم سبب متداخل مع ما سبق وربما يكون وسيلة من وسائله.

وإن كان المراد به المتشابهات التي قسيم الواضحات الجلية من المسائل فأي نعم! لأنها تجنح

بالأفكار إلى مدى بعيد عن الحقيقة والصواب.

رابعاً- النصوص الواردة في التحذير من الغلو وذمه:

لما كان الدين منزلا من عند بارئ السماوات والأرض وما فيهما، كان سبحانه أعرف بحدود البشر وإمكانياتهم فشرع لهم ما يناسبهم ويوافق قدراتهم، فجاء الإسلام دينا سمحا سهلا، دين يسر دُفعت فيه المشقة بالقدرة والاستطاعة كما قال تعالى ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ [البقرة /٢٨٦]، وإذا كان الدين الإسلامي بهذا الوضع، وكونه دين

(١) هو د. يوسف القرضاوي في كتابه ((قضايا إسلامية معاصرة)) على بساط البحث (ص١١٥-١١٦)، وانظر رسالته: ((الغلو في التكفير)).

اعتدال وتوسط وقصد في كل شيء، علم أن الغلو فيه والزيادة على اعتداله والتشدد في قصده، ضلال عن هديه وبعد عن مقاصده، وكذلك في التفريط والتهاون بأحكامه ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [الأنعام/١٥٣]. وقال سبحانه فيمن خالف صراطه المستقيم فحرم ما أحله الله ﴿يا أيها الذين أمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ [المائدة/٨٧]، فعد هذا الفعل من الاعتداء على شرع الله وحكمه وتقديره.

- ومن مقررات عقيدة أهل السنة والجماعة التمسك بالكتاب والسنة والبعد عن مزلات الأقدام في الأفهام والأفعال-كما قال الطحاوي في عقيدته:((ودين الله في الأرض والسماء واحد- وهو بين الغلو والتقصير)). وقال:((ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم ولا نتبرأ من أحد منهم)) أهـ.

- وسبق بعض النصوص من الكتاب والسنة، المحذرة من الغلو والناهية عنه.

وهذه بعض ما تيسر الوقوف عليه من الآيات والأحاديث التي تحدد معالم موقف الإسلام من الغلو في الجملة:-

١- قال تعالى ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ [التوبة/٣٠].

ويضاهئون يشابهون ويماثلون- كما هو عند غلاة الرافضة من الحلولية والتناسخ وعند غيرهم.

٢- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ((هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون)) رواه مسلم[1].

المتنطعون هم المجاوزين الحد، المتعمقون الغالون في القول والفعل والفكر. فتوعدهم

(١) رواه مسلم في كتاب العلم-باب هلك المتنطعين- وأبو داود في كتاب السنن- باب لزوم السنة وانظر تيسير العزيز الحميد (ص٣٠٥-٣١٨).

النبي عليه السلام بالهلاك وكررها ثلاثا للتأكيد- ولا أشد من هلاك الدين والله المستعان.

٣- وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا:((لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع فقيل يا رسول الله كفارس والروم فقال فمن الناس إلا أولئك)) رواه البخاري ومسلم[١].

قاله النبي ﷺ على سبيل التحذير والنهي عن سلوك مسالكهم واتباعهم وفي إشارته إلى فارس والروم: تحذيرا من ديانة أهل هذين القطرين ففارس مجوس فيهم يهود في أصبهان، والروم نصارى وفيهم يهود.

وفي حديث أبي سعيد عندهما- التصريح باليهود والنصارى. ولا تعارض بين الحديثين، فمن الناس إلا أولئك؟ استفهام على سبيل الإنكار وفيه حصر الضلال والأتباع بأولئك أهل فارس والروم، ولقد صحت نبوته ﷺ فاتبع الناس الغلاة عقائد أهل فارس المجوسية، ومنهم دخل على المسلمين باب الفتنة وانفتح على مصراعيه.

٤- وعن انس ﷺ قال: أنه كان يصلي بالمدينة صلاة خفيفة كأنها صلاة مسافر أو قريبا منها فلما سلم قال له رجل: يرحمك الله أرأيت هذه الصلاة المكتوبة أو شيء تنفلته؟ قال إنها المكتوبة وإنها لصلاة رسول الله ﷺ ما أخطأت إلا شيئا سهوت عنه. ثم قال: إن رسول الله ﷺ كان يقول لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديار ﴿رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ [سورة الحديد/٢٧]. رواه أبو داود وأبو يعلى وغيرهما[٢].

٥- وقال البخاري في صحيحه، باب الدين يسر وقول النبي ﷺ ((أحب الدين إلى الله

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأعتصام- باب قول النبي ﷺ ((لتتبعن سنن من كان قبلكم))، ومسلم كتاب العلم- باب اتباع سنن اليهود والنصارى (رقم٢٦٦٩).

(٢) ابو داود كتاب الأدب- باب الحسد. ورواية أبي يعلى ذكرها ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية.

الحنفية السمحة)) وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ((إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة))[1].

الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، السهلة السمحة الميسورة، قال تعالى ﴿ما جعل الله عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم﴾ [سورة الحج/٧٨].

قال الحافظ في الفتح (١/١١٧-١١٨):

(والمشادة بالتشديد والمغالبة، يقال شاده يشاده مشادة إذ قاواه، والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب. قال ابن المنير: إن هذا الحديث علم من أعلام النبوة فقد رأينا ورأى الناس قبلنا، أن كل متنطع في الدين ينقطع. وليس المراد منه طلب الكمال والأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة. بل منع الإفراط المؤدى إلى الهلاك والمبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل) أهـ.

والسداد هو التوسط وطلب الصواب من غير غلو أو تقصير وعليه دلالة اللغة.

قال ابن رجب على هذا الحديث: فإن شدة السير والاجتهاد مظنة السآمة والانقطاع والقصد أقرب إلى الدوام، ولهذا جعل عاقبة القصد البلوغ كما قال ((من أدلج بلغ المنزل)).

ومنه حديث أنس مرفوعا: ((يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا))[2].

٦- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((سيأتي على الناس سنوات خداعات، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضه، قيل: وما الرويبضه؟ الرجل التافه في أمر العامة)) [3]. رواه ابن ماجه

---

(١) البخاري في كتاب الإيمان- باب الدين يسر. وقد شرحه الحافظ ابن رجب في رسالة حافلة اسمها " بيان المحبة في سير الدلجة ".

(٢) البخاري في كتاب العلم-باب ما كان رسول الله عليه السلام يتحولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا. ومسلم في كتاب الجهاد- باب الأمر بالتيسير وترك التنفير (رقم١٧٣٤)، وانظر الفتح (١/١٩٦-١٣٧).

(٣) رواه ابن ماجه في كتاب الفتن-باب شدة الزمان (رقم ٤٠٣٦)، والحاكم (٤/٥١٢). وله شاهد عند أحمد في مسنده عن أنس (٣/٢٢٠)، والحديث ذكره الألباني في الصحيحة (رقم ١٨٨٧).

والحاكم وصححه الذهبي ورواه أحمد في المسند (١/٢٩١).

- قال السندي في شرحه على السنن (٢/٤٩٤):

((خداعات بتشديد الدال للمبالغة، قال السيوطي أي تكثر فيها الأمطار ويقال الربيع..وقيل الخدعة القليلة المطر من خدع الريق إذا جف والرويبضه بالتصغير التافه الحقير قليل العلم أهـ.

وفي رواية الذهبي والتلخيص في المستدرك:" قال السفيه يتكلم بأمر العامة)) أهـ.

وهذا واقع كثير من الفرق الغالية الخارجة عن الإسلام أو التي كادت تخرج عن الإيمان قديما أو حديثا. فما زالوا يتخذون السفهاء أئمة وزعماء وربما شابههم بعض المسلمين في جماعتهم وطوائفهم، فالله المستعان على انقلاب المفاهيم واختلاف الموازين.

٧- وكتب رجل إلى عمر بن العزيز يسأله عن القدر فأجابه:

(أما بعد: أوصيك بتقوى الله والاقتصاد في الأمر، واتباع سنة نبيه ﷺ وترك ما أحدثه المحدثون بعد ما جرت به سنته، وكفوا مؤنته فعليك بلزوم السنة فإنها لك بإذن الله عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرة فيها، فإن السنة إنما سنها من قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتعمق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، ولهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم إنما حدث بعدهم ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم، فإنهم هم السابقون، فقد تكلموا فيه بما يكفي ووضعوا منه ما يشفي فما دونهم من مقصد، وما فوقهم من مخسر، وقد قصدوا قوم دونهم فجفوا، وطمح عنهم قوم فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم.

كتبت تسأل عن الإقرار بالقدر فعلى الخبير وقعت، ما أعلم ما أحدث الناس من محدثة، ولا ابتدعوا من بدعة هي أبين أثرا ولا أثبت أمرا من الإقرار بالقدر لقد كان ذكره في الجاهلية الجهلاء يتكلمون به في كلامهم وفي شعرهم، يعزون به أنفسهم على ما فاتهم. ثم لم يزده الإسلام بعد إلا شدة- أي الشدة في العزاء والإيمان به من القول بأن ما

أخطأنا لم يكن ليصيبنا وما أصابنا لم يكن ليخطئنا- ولقد ذكره رسول الله ﷺ في غير حديث ولا حديثين، وقد سمعه المسلمون فتكلموا به في حياته وبعد وفاته يقينا وتسليما لربهم وتضعيفا لأنفسهم، أن يكون في شيء لم يحط به علمه، ولم يحصه كتابه، ولم يمض فيه قدرته، وأنه مع ذلك لفى حكم كتابه: منه اقتبسوه، ومنه تعلموه. ولئن قلتم لِمَ أنزل الله آية كذا؟ ولِمَ قال كذا؟، لقد قرءوا ما قرأتم، وعلموا من تأويله ما جهلتم وقالوا بعد ذلك كله بكتاب الله وقدره، وكتبت الشقاوة، وما يقدر يكن، وما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن، ولا نملك ضرا ولا نفعا ثم رغبوا بعد ذلك ورهبوا"[1] أهـ.

الله أكبر فما بعد هذا القول من قول رسم فيه منهج أهل الكتاب والسنة والجماعة فيما يتعلق بالقدر خاصة وغيره، أبدع رسم فرحمة الله تعالى عليه، كيف حذر من الغلو وحاذر من ضده-، والنصوص من الأحاديث النبوية في النهي عن الغلو والابتداع والحذر منها كثيرة مستفيضة لو اجتمعت لبلغت سفرا ضخما. وهي مع ذلك مثبوتة في ثنايا الصحاح والسنن والمسانيد ومدونات السنة وهي مشهورة غير مجهولة والحمد لله، ومظانها من كتبها:

كتاب العلم- الأيمان- الفتن- لزوم الجماعة؟- الاعتصام بالكتاب والسنة- التوحيد- السنة- المناقب والفضائل.

خامساً- وسطية أهل السنة:

أهل السنة والجماعة، وسط بين الأمم ووسط بين الفرق الغالية، ووسط بين المفرطين المتساهلين والمتشددين كما قال تعالى ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على

---

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة- باب لزوم السنة (رقم ٤٦١٢)، من طريق محمد بن كثير ثنا سفيان به من ثلاثة طرق.
والأحاديث والآثار الواردة في ذم القدرية خاصة كثيرة جدا انظرها في كتاب السنة لأبي داود ضمن السنن- وفي سنن الترمذي كتاب القدر- وسنن ابن ماجه كتاب الفتن- وشرح أصول ((اعتقاد أهل السنة)) للالكائي (٤/٦٢٧-٧٥٠)، و((السنة)) لعبد الله بن أحمد (٢/٣٨٤-٤٣٣)، و((الشريعة)) للآجري (٢٢٧-٢٣٥)، و((السنة)) لأبن أبي عاصم وأمثالها.

الناس﴾ [البقرة-١٤٣] وقال ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [الأنعام-١٥٣].

قال ابن تيميه- رحمه الله- في الواسطية مقررا هذا: ((بل هم الوسط في فرق الأمة، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم فهم وسط في باب صفات الله تعالى بين أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة، وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية، وغيرهم. وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية وغيرهما، وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية، وفي باب أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج)).

وسبب هذه الوسطية المعتدلة:

هو تمسكهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفهمها على فهم الصحابة على بصيرة وفقه وحكمه، ومن منطلقات مدلولات اللسان العربي الفصيح فهم الذين كانوا وما زالوا على الجماعة: على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه.

يدل لذلك أنهم لم يخالفوا ما في الكتاب والسنة أبدا- وإن وقعت خلافات فهي قليلة لهم فيها العذر، كما وقع الاختلاف في رؤية النبي ﷺ ربه ليلة المعراج وغيرها- وهم الذين يذودون عن كتاب الله غلو الغالين وانحرافات المنحرفين.

وهم الذين يخدمون سنة رسوله ﷺ رواية ودراية بأفضل مقاييس القبول والرد- بما لا يعرف عند من قبلهم ولا يكون فيمن بعدهم.

- وهم على منهج واحد لم يتغير ولا يتغير منذ حياة النبي ﷺ وحتى لا يبقى على وجه الأرض مسلم يقول الله الله.

- ولا يزال متأخروهم يعتمدون أقوال علمائهم السابقين لهم في تبين الألفاظ وتفسير النصوص ما كان الدليل موافقا لهم- ولم يرو المعارض لأقوالهم، وأما غيرهم من أصحاب الفرق والنحل فلا يزالون في فرقة واختلاف في مناهج وتطور أفكار ومعتقدات ما يظن الباحث انفصال متأخري الفرقة الواحدة عن متقدميهم. كما أن بعض الفرق قد انقرضت كغلاة القدرية حيث لم تستطع المواصلة أمام رفض العقول الصحيحة والنظر السليمة لتلك

المبادئ فذهبت بذهاب أصحابها.

- كما أنهم الذين اعتبروا الإجماع مصدر من مصادر الشريعة إذا كان بمستند من كتاب أو سنة، ولم يعرف إجماعهم على مخالفة نص أبدا.

- وهم الذين اختارهم الله ليختم بهم أديانه على الأرض، ودينهم المناسب لكل عصر ومصر: زمان ومكان ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ .

سادسا- آثار الغلو- خاصة العملية- ومنهج أهل السنة:

نقول ابتداءاً إن البحث في الغلو والغلاة، وأسباب الغلو، ونشأته، لعلاج هذه الآثار والنتائج الحاصلة من الغلو، وتدبر كيفية ضلال الناس عن صراط الله المستقيم للعظة والعبرة.

- والغلو في مسائل الدين مما يسئ في الحقيقة إلى جوهر الإسلام، ومحاسنه فالغلو في العبادات أو الأفكار أو العقائد أو التصرفات- ومعارضة قواعد الشريعة في التسهيل في مواضعه مما يستقبح حصوله في المجتمع المسلم القصد المتوسط.

- فمثلا التبتل وعدم النكاح أو الاعتزال وطول العبادة أو صيام الدهر كله كل هذه نماذج من الغلو والزيادة والإفراط في العبادة بما لم يأذن به الله، بل هو قدح في الشريعة وواضعها الذي شرع للناس عباداتهم لأنه يتهم الشريعة بالنقص، فلهذا طلب الزيادة بالغلو. ونجعل مثل هذا عن تكامل الشريعة في كل شئ وأن العبادة ليست مقتصرة على الجوع وطول الذكر والصلاة.... بل كل عمل يفعله الإنسان مما أباحه الله يكون عبادة فالنكاح عبادة والمشي عبادة والتجارة عبادة... وعلى هذا فقس كل مسألة وقع فيها الغلو، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فقد كان أكمل العباد عبادة لربه، وهذا مقرر عند كل من شهد بعبودية الرسول لربه ورسالته.

ولئلا يكون الحديث إنشائيا فسأحاول ذكر ما تيسر من الآثار التي تصورتها ووقعت أو التي يمكن وقوعها، بناءا على الترتيب السابق للمسائل في الفصل الثاني.

(١) أثر الغلو في الصفات:

فالمعطلة طلبوا تنزيه الله فردوا النصوص أو حرفوها، وعبدوا إلها لا يعرفون له صفة إلا أنه حي موجود. اعتمادا على مقررات عقولهم ومناطقهم، وهي لا تنفرد بتقرير المغيبات إذ المعمول فيها على السمعيات والسنة.

- وفسروا المنهج العقلي على الأحكام الشرعية فعملوا ما هو عنده حسنا وتركوا ما اعتقدوه قبيحا- ولو كان ثابتا العمل به عند المسلمين من أصل شرعهم، فارتكبوا المحرمات وعللوا أفعالهم لها بالتأويل والمجاز.

والمشبهة قد وصفوا الله تعالى عما يقولون بصفات النقص الجسمية فعبدوا ربا كالبشر في حقيقته. على هذا فهو محتاج لمخلوقاته، كالعرش الذي يجلس عليه- والجمل الذي يركبه يوم عرفه- تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

وسبق بيان منهج أهل السنة بينهما قريبا في أول الفصل في الوسط بين طرفين.

(٢) أثر الغلو في القضاء والقدر:

فعند الجبرية: لا حرج على العبد في فعل ما شاء حلالا أو حراما لأنه مجبور على فعله لا اختيار له ولا إرادة.

وعليه يعطل أهم أصول شرائع الدين، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا تكون الدعوة إلى الله، لأن العبد حسب ما أجبره عليه ربه وتسيره له. فإذا رأيت العاصي يمارس معصيته والكافر يكفر فلا ينكر قلبك ولا يتمعر وجهك لأنه ليس له إرادة في فعله، وإن أنكرت عليه قال هذا جبر جبرت عليه!

أما القدرية: فوصفوا الله تعالى بالعجز عن خلق فعل عبده ووصفوا العبد بالمقابل بالقدرة على خلق فعل نفسه وأنه يخلق ما لا يقدر الله على فعله.

- بل وصفته الغالية بالجهل بما سيقع من عبده، والعلم بعدما يقع من فعله. بينما على ضده يكون سلوك الفرد القدري حيث لا رقيب عليه لأنه مستقل بفعله وقدرته، لما نفوا تقدير الله لأفعال عباده حسنها وقبيحها، خيرها وشرها.

وأهل السنة وسط بينهما:

فيقررون للعبد قدرة واختيارا ومشيئة لا يجبره على فعله أحد حتى خالقه؛ بل يفعل ما يفعله بمحض إرادته وحسب مشيئته. لكن فعله هذا وإرادته هذه داخلة في خلق الله تعالى له كما أنها مسبوقة بعلم الله بها فلا يعمل عملا إلا وقد سبق تقديره وإرادته في علم الله الأزلي وكتبه عنده في كتابه الذي جرى بما كان ويكون إلى قيام الساعة. وهم يفرقون بين إرادة الله العامة للشيء، وبين محبته له، ورضاه به.

فالأولى إرادة كونية قدرية عامة تظهر علم الله وكمال قدرته، والثانية إرادة شرعية دينية من أجلها أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ليهدي من هدى على بينة ويضل من ضل عن بينة.

- وعليه فلا مستمسك لما يفعله العباد من خير وشر بالقدر أبدا عند أهل القرآن والسنة والاجتماع.

- وهم مع ذلك يعملون ويحرصون على إرادة الخير والطاعة، وما يحبه الله ويرضاه. ويتجنبون ما يسخطه ويبغضه ويكره سبحانه وتعالى، حيث بهذا ظهر أثر عقيدتهم في القضاء والقدر في سلوكهم وأعمالهم وأخلاقهم

(٣) أثر العقيدة في الأشخاص:

- رفع الأشخاص فوق منازلهم التي أنزلهم الله عليها يؤدي إلى الاعتقاد فيهم بفعل الخير والشر ومن ثم عبادتهم ودعائهم والاستعانة بهم ... مما هو صريح الشرك الذي جاء النبي ﷺ بالدعوة إلى نبذه والتحذير منه دعوة ونذارة ﴿ما نعبدهم ألا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [الزمر/٣].

- التلبيس على الناس والعوام الجهلة بدين الله والافتراء عليهم لأخذ أموالهم وابتزازهم منهم بدعوى القربات إلى الأولياء والصالحين، وربط قلوب الناس بهم طمعا وتسلطا وترأساً.

تعطيل ألوهية الله على خلقه واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له منهم بوجوده عند هؤلاء الغلاة في ذوات من اتبعوهم، واعتقادهم واسطتهم إلى الله فاكتفوا بهم عند الله واستغنوا عن الاتصال بالله مباشرة بعبادته ودعائه فكانت القبور والأضرحة والمشاهد- وسمات الشرك الأكبر.

فانظر إلى مجتمع تكون فيه هذه الفوضى العقدية كيف يكون وصفه، فضلا عما قد يكون من المتبوعين لأولئك الأشخاص من المصادمات ما يستلزمه واقعهم.

وحسبك أن تدير رأسك في بلاد المسلمين التي ابتليت بهذا النوع، وهي كثيرة ولا حول ولا قوة إلا بالله - لتعرف الأثر السيئ، والتخلف المقيت نتيجة تلك المعتقدات الباطلة .

(٤) أثر الغلو في النبوة :

- سيأتي كل مدع للنبوة أو الرسالة أو حتى فوق منزلتهما بشرع يخالف ما عليه سابقه لا محالة، فكم تكون في الأرض من شريعة يتعبد الناس بها؛ أي منها سيكون الأحق بالإتباع والعمل ؟!!

- ما سيحصل من تنافس بين هؤلاء المدعين للنبوة مما ستنتج عنه سفك دماء وأخذ أموال بغير حق وفوضى أو قل غابة لا نظام يحكمها ولا عدل، كما وقع بين أتباع البابية ومؤسس البهائية محمد حسين المازندراني في مواقفه.

· وسبق موقف أهل السنة من الغلو والنبوات.

(٥) أثر الغلو في بغض الصحابة وتكفيرهم:

- القدح بنقلة الشريعة: الكتاب والسنة، فإذا قدح في نقلهما فكيف الوثوق بهما؟ فيلزم تعطيلهما!

- بالمقابل يكون تعبد الله بما نقله نفر من الصحابة: علي وسلمان وعمار والمقداد وأبي ذر، ونتولاهم ومعتقدهم، ونعتمد على أقوالهم، فيكونوا هم المشرعين فلا كتاب ولا سنة، لقلة ما رووه بالنسبة إلى السنة والدين، مما يفتح باب الكذب عليهم والقول عليهم بما لم يقولوه، كما امتلأت به كتب القوم به على عليّ وأبنائه من آل بيته.

- انعدام الشريعة وظهور الجاهلية مرة أخرى فلا توحيد ولا عبادات ولا نظام للحياة متكامل.

وأهل السنة وأصحاب النبي ﷺ بين الرافضة وغلاتهم وأشباههم، وبين الخوارج الجافين في حقهم، الجاحدين لفضائلهم. فيرون عدالة الصحابة كلهم، فهم من حمل إلينا الكتاب

والسنة وحفظوها بحفظ الله لها.

- وهم كما قاله ابن مسعود وفيما نقله عن ابن أبي العز (ص٣٨٣) من شرح الطحاوية وأسنده عنه ابن عبد البر في جامع العلم وغيره:

من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة.

أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوبا، وأعمقها علما وأقلها تكلفا. قوم اختارهم الله لصحبه نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم" أهـ.

- ونرى ما حصل بينهم من فتنة أوقدها أعداء الله، فكل من الصحابة بطائفيتهم مجتهد مأجور غير مأزور مختلفين في مقدار الأجر.

وفتنة سلم الله منها سيوفنا نسلم منها ألسنتنا، كما نظمها القحطاني في نونيته قائلا:

دع ما جرى بين الصحابة في الوغى　　بسيوفهم يوم التقى الجمعان

فقتيلهم منهم وقاتلهم لهم　　وكلاهما في الحشر مجتمعان

والله ينزع يوم الحشر كلما　　تحوى صدورهم من الأضغان

- ويرون الخلافة الراشدة، خلافة النبوة هي خلافة أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان ذي النورين وعليّ سبط رسول الله ﷺ.

- ويرتبونهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة- على ما استقر عليه قول أهل العلم والسنة والجماعة، وانعقد عليه إجماعهم.

- ويترضون عنهم أجمعين مسيئهم ومخطئهم، وأنه لو أنفق المنفق مثل أحد ذهبا لم يبلغ مد أحدهم ولا ثُمنه.

(٦) أثر الغلو في الأسماء والأحكام:

- تعتقد الخوارج الفاسق كافر في الدنيا، مخلد في النار يوم القيامة يجوز سلب ماله، واستحلال دمه واسترقاقه وتطليق زوجته منه... وهو في الآخرة يائسا من رحمة الله للجزم بأنه كافر ومخلد في نار جهنم.

- أما المعتزلة فيوافقونهم في حكم يوم القيامة.

فهؤلاء ضيقوا على الناس بمحاسبتهم بكبائرهم ومعاصيهم، فكم يبقى في الدين من رجل بعد هذا التشدد والتعسير؟!

- ولا يزال خطر أولئك الخوارج مستمرا، حتى ظهرت في هذا الزمان طائفة تنادي بأفكارهم، وتأصل بأصولهم هي جماعة مصطفى أحمد شكري (١٣٩٧هـ) في بلاد مصر. فمن أقوالها[1] في مرتكب المعصية:

((لم يحدث أن فرقت الشريعة بين الكفر العملي والكفر القلبي، ولا أن جاء نص واحد يدل أو يشير أدنى إشارة إلى أن الذين كفروا بسلوكهم غير الذين كفروا بقلوبهم واعتقادهم، بل كل النصوص تدل على أن العصيان لله عملا والكفر به سلوكا واقعا هو بمفرده سبب العذاب والخلود في النار والحرمان من الجنة)) أهـ.

- وحسبنا أن نشير إلى آثار تلك الفرقة على الناس:

١- اعتزال أفرادها المجتمع المصري لأنه كافر راض بالكفر.

٢- تصفية وقتل كل من خالفهم أو رد عليهم - ومنهم ذهبي مصر - لأن من خالفهم فهو كافر، حيث قامت عليه الحجة فلم يقتنع بها، وتجري عليه أحكام المرتد.

---

(١) حرصت على الوقوف على أقوال الرجل من خلال رسالتيه: الحجيات وإجمال تأويلاتهم والرد عليها، لكن ظُن بها عليّ. لهذا اعتمدت على مانقله منها صاحب ((الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو فيه))، فقد صرح أنه أخذ من تلك الرسائل مباشرة، ولعل الله يسهل الوقوف عليها. وماذاك إلا لأجل إنصاف القوم وإعطائهم حقوقهم.

٣- كل من لم يحكم بما أنزل الله يكون كافرا عندهم كفرا مخرج عن الملة جملة من غير تفصيل، خلافا للمحققين من أهل السنة في وجوب التفصيل.

٤- التكفير بالمعاصي والخلود بها في نار جهنم.

٥- تشويه صورة سماحة الإسلام بين الناس، ووافق ذلك لمزهم بالتطرف، وتسميتهم بجماعة التكفير والهجرة، وتفريقهم بين المسلمين، وبث الفوضى والخوف وعدم الأمن بينهم.

٦- دعواهم بأنهم جماعة المهدي المنتظر، لاتحاد الزمان الذي أخبر عنه النبي ﷺ بوجود المهدي فيه.

وهكذا فكل من انتحل مثل أفكار الخوارج ومعتقداتهم، لابد أن ينتج عنه نظير ما ينتج عن هذه الطائفة من الآثار غير المحمودة طبعا وعقلا، فضلا عن مخالفتها للشرع الحنيف.

وعند المرجئة المؤمن على رأيين:

١- الإيمان هو مجرد المعرفة والإقرار القلبي بالله وبرسوله. فكذبوا بالقرآن وشهدوا بالإيمان لإبليس وفرعون.

وعليه فلا حاجة إلى دعوة الكفرة غير الملحدين، لأن غالبية الكفرة ممن يقرون بالله ويؤمنون به في قلوبهم، لا فرق بين المؤمن والكافر، إلا بالجهل بالرب أو جحوده. هذا عند المرجئة المحضة من الجهمية ومن وافقهم.

٢- حد الإيمان النطق باللسان فقط - كما هو مذهب الكرامية - وإن جحد قلبه، فعلى هذا يشمل اسم المؤمن عندهم في الدنيا المنافق والمعاند والزنديق، لأنهم أظهروا كلمة الإيمان نطقا، وإن لم يعتقدوها قلبا أو يطبقوها عملا.

- أما في الآخرة - فعند المعرفية - لا يدخل النار إلا الملاحدة المنكرين بقلوبهم وألسنتهم وجود الله تعالى، والمكذبين بقلوبهم للرسول ﷺ.

- وعند الكرامية، كل من نطق بلسانه دخل الجنة وإن كان ما في قلبه خلاف ذلك.

ومن لم ينطق بلسانه بل اكتفى بتصديق قلبه وإيمانه ويقينه فهو من أهل النار.

- فعلى ذلك لا يضر أهل المعاصي والفسوق والمنكرات بل الكفرة ما داموا عارفين لربهم ورسوله، مقرين لهما بقلوبهم أو ناطقين بالشهادتين بألسنتهم؛ فهم مع ما هم عليه من كبائر أو كفر ولو شرك مع الله هم من أهل الجنة قطعا عند هؤلاء.

- فإذا ما الحاجة إلى إرسال الرسول إلى أهل مكة وغيرهم وهم لا يعبدون الأصنام إلا لتقربهم إلى الله؟ فهم مقريين بالله مؤمنين به وبالأنبياء مثل محمد، وإبراهيم، وإسماعيل صلى الله عليهم وآلهم وسلم.

وهؤلاء العصاة مهما كانوا عليه من معصيتهم أو كفرهم فهم كاملو الإيمان فلا حاجة إلى جهاد المشركين.

- وهم يتركون الملاحدة والمفسدين يعيثون في الأرض الفساد، بجامع أنهم مؤمنون.

- يقفون أمام الدعوات الإصلاحية كدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية شهوة وهوى، حتى يسلم لهم الميزان بين الفئتين.

- يوسعون دائرة الإيمان ويدخلون فيها الزنادقة وأكفر الكفرة.

أهل السنة والجماعة يرون الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالجنان، يزيد بطاعة الرحمن وينقص بطاعة الشيطان، فقولهم هو الوسط، وعليه يكون اعتماد الحياة ومن خلالها يكون تنظيمها وهو المنهج المعتدل الذي جعله الله للناس هدى ورحمة وطريقا سويا لا عوج فيه ولا أمتا. وبه تحصل السعادتين في النشأتين.

- فيقفون أمام جميع المنكرات ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر ويأخذون على يد السفيه المفسد ويأطرونه على الحق أطرا، ولو لم يندفع شره إلا بقتله قتلوه تحصيلا للمصلحة العامة العظمى، وإنفاذا لحكم الله في من لم يتق شره إلا به.

- وهم يدعون الناس إلى الإسلام ويجاهدون عليه لأنه دين الله الحق الصحيح، المأمور بإتباعه من كل أحد من العلمين ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾ .

- وهم مع ذلك لا يُقنّطون أهل المعاصي من رحمة الله ويؤيسونهم من رحمته. بل يأخذون بجانب الحب والرجاء والخوف في دعوتهم، وكل حسب ما يناسبه.

سابعا- علاج الغلو:

وبعد فمن إتمام الكلام على الغلو بعد ذكر أسبابه ومشكلاته وآثاره أن أختم ذلك بذكر الأساليب المفيدة في علاج الغلو في أي باب من أبواب الدين، وفي أي زمان من أزمنة الناس.

ولا يوجد علاج مانع شافي مبرأ إلا:

أ- التمسك بالكتاب والسنة الصحيحة عملا وقولا واعتقادا في شتى ميادين الحياة وعلى اختلاف أحوالها، على علم وهدى وبصيرة، لا بهوى وجهل، أو عدم اعتبار للقواعد الشرعية.

ب- سلوك منهج خير الناس وأفضلهم كما شهد لهم بذلك رسول الله ﷺ. وعدم مفارقة الجماعة، والإحداث في الدين ما لم يأذن به الله، من البدع والمذاهب والجماعات.

ومن الأساليب التي يمكن إيرادها في هذه المناسبة الآتي:

١- رفع الجهل والسعي إليه بأحكام الشريعة الإسلامية والسنن النبوية، بطلب الحق والبصيرة بتلك الأحكام، وبتعلم العلم والعكوف عليه دراسة وحفظا وفهما ودعوة وعملا.

٢- الحرص على سلامة المنهج المتبع لآثار السابقين الموافقة لقواعد الشريعة، والمحققة لمقاصدها وغايات أحكامها وشرائعها الكلية والتفصيلية، شمولا بعيدا عن النظرة الشخصية أو الطائفية الضيقة.

٣-دعوة أولئك الذين يدخلون إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وخفض الجانب لهم، حتى إذا كانت في نفوسهم مقاصد مكيدة فإنها تزول بإذن الله، واستخدام ما يمكن من الأساليب اللينة الحقة، حتى لو ظهر غلو عسى أن يتركوه أو تكون مرحلة زلت فيها قدمه سرعان ما يرجعون ويأيبون عنها، لكن إذا لم يجد العلاج باللين والحسنى فآخر الدواء الكي، لئلا يستفحل المرض في جسد الأمة وينتشر، وقطعا للمرض واستئصاله لمصلحة المريض وغيره.

- وحبذا لو طبق هذا المنهج مع الشباب الذين لديهم نزعات غلو أو كانوا جماعات، ما لم نحس الزيادة في الغلو، حتى لا يولد العنف تصلبا وزيادة غلو وتشدد وتمسك بالرأي كما تعالج بعض الأنظمة الغلو والتطرف!

٤- التربية الإيمانية الصحيحة على منهج القرآن، وبنبراس من تربية النبي ﷺ لأمته وأصحابه على سبيل الخصوص. حيث قضى عليه السلام على ما بدر من مظاهر الغلو بأسلوب تربوي حقيق بأن يحتذى ويطبق حتى صار الصحابة أمثلة يقتدى بهم بالعدل والإحسان والاعتدال والوسطية المأمور به شرعا.

-التربية على منهج السماحة والمودة وخفض الجانب للمخالفين إلى حد معين، وإحسان الظن بالمخالف ما لم يصل الأمر إلى غير المرغوب فيه ما أمكن إلى ذلك سبيلا.

- التربية على التأدب مع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ومع أصحابه وأهل العلم، تأدب التلميذ مع معلمه والطفل مع مربيه، مع أهل العلم فلا يتجرأ عليهم ويماريهم أو يتطاول عليهم، بل يباحثهم بالحسنى واللطف ..

٥- التحاكم في الأفكار والمناهج والأعمال إلى محكمة الكتاب والسنة النبوية الصحيحة بفهم من لغة العرب وفهم الصحابة لهما...

- وأن يكون الحوار الصادق الهادئ الناشد للحق تحت مظلة مصادر الشريعة الأصلية المتفق عليها عند المسلمين؛ فينزع ما يتعلق به من هوى أو فكر أو آراء قبل دخول هذه الخيمة تجردا لله، وطلبا للحق ضالته المنشودة.

٦- مجانبة التعصب المذموم للآراء وأقوال الأئمة مهما علت رتبتهم وارتفعت منزلتهم ما لم يكن رسول الله ﷺ. بل يجب أن يكون المقصد هو طلب العلم والدليل السمعي الموافق بالعقل الصحيح والفطرة المستقيمة إذ لا ينفكان عن بعضهما.

٧- ترك الجراءة على العلم وتجاوز ذرفاته، والقفز إلى أعلى مراتبه، وترك فهم الصحابة وأقوالهم في تفسير النصوص، وفهوم العلماء الراسخين بالفهم والرأي من الكتاب والسنة، والاستقلالية دون سابق علم وبصيرة من لغة عربية صحيحة مدركة المقاصد والمعاني، وإحاطة بالعموميات من أصول الشريعة قبل خصوصياتها.

٨- قيام العلماء والأئمة بواجبهم في هذا الميدان وبدورهم المطلوب منهم برفعهم الجهل عن الناس وأن يكونوا مصابيح لهم في الدجى تهديهم إلى الطريق المعتدل السوي، وأن يكونوا قدوة لعامة الناس كحال العلماء المخلصين وترك ما يكون بينهم من خلافات شخصية أو طائفية والنزول عند الحق مهما كان قائله ومعاشرة الناس في واقعهم، وتلمس مشاكلهم وحاجاتهم.

ثامنا- طريقة السلف في علاج الغلو:

وذلك بالإتيان على نماذج قليلة توضح منهجهم في معالجتهم للمحدثات ووسائل الغلو من الأفكار الوافدة، أو المولدة الغالية وطريقتهم:

· لزوم الجماعة ما أمكن وعدم مفارقتها وهم جماعة المسلمين، وقد يعبر عنهم بجماعة المسلمين أو المجتمعين على إمام معين، وعدم الخروج على الأئمة والصبر عليهم فعن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا إلى النبي ﷺ أنه قال:

((من رأى من إمامه ما يكرهه فليصبر، فإن من فارق الجماعة شبرا فمات فميتته جاهلية)) متفق عليه[1].

أي يكره ما يأتي من معصية الله، لا هوى نفسه وخصوصها، وزخرف الدنيا.

وعلى هذا كان معظم السلف فلم يكونوا -جملتهم- يخرجون على أئمة الجور الظلمة. وحسبك بالحجاج بن يوسف بقسوته وظلمه ومع هذا فلم يذكر عن أحد من الصحابة الخروج عليه، بل كانوا يصلون خلفه ويبغضون ما يأتي منه من المعاصي والظلم، ومنهم ابن عمر وابن عباس وأنس بن مالك حيث وجد البعض منهم محنا منه وتعنتا وظلما.

· ذم الجدال والخصام في الدين، وكثرة القيل والقال بدون طلب الحق ووجود الدليل. فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه

---

(١) رواه البخاري-في كتاب الفتن- باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "سترون بعدي أمور فتنكرونها"، ومسلم كتاب الامارة- باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (١٨٤٩).

إلا أتوا الجدال ثم قرأ ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون...﴾)) رواه الحاكم وغيره[١].

وعلى هذا درج السلف فكانوا يحذرون من الجدال فيما لا ينفع أشد التحذير. وأيضا في التحذير من أهلها، ومن ذوى الهوى المتبع، والشح المطاع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه كما صح من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه.

- فقد روى اللالكائي[٢] بسنده إلى علي بن أبي طالب أنه قال: ((إياكم والخصومة فإنها تمحق الدين)).

- وروى بنحوه عن ابن عباس والحسن بن علي ومحمد بن الحنفية والأحنف ابن قيس والفضيل بن عياض ومسلم بن يسار وغيرهم كثيرا.

فالخصومات تمحق الدين وتثبت النفاق، وهي ساعة جهل العالم التي يستسيغها الشيطان ليدرك بها هواه ويثيره على الباطل.

-وروى الآجري في الشريعة (ص٥٦) بسنده عن معن بن عيسى قال: ((انصرف مالك بن أنس من المسجد وهو متكئ على يدي فلحقه رجل يقال له أبو الحورية كان يتهم بالإرجاء فقال: يا عبد الله، اسمع منى شيئا أكلمك به أحاجك وأخبرك برأي فقال مالك: فإن غلبتني. قال: إن غلبتك اتبعني. قال: فإن جاء رجل آخر فغلبنا، فقال أبو الحورية: نتبعه: فقال مالك: يا عبد الله بعث الله محمدا ﷺ بدين واحد وأراك تتقل من دين إلى دين)) أهـ.

قال عمر بن عبد العزيز: ((من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل)) أهـ[٣].

نعم فقد كانوا رحمهم الله يدفعون المراء ما أمكنهم إلى ذلك سبيلا.

---

(١) المستدرك (٢/٤٤٨)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ورواه أبي عاصم في السنة (رقم ١٠١)، والآجري في الشريعة (ص٥٤).

(٢) انظر رقم (٢١١-٢٢٤) من شرح أصول اعتقاد أهل السنة والشريعة (ص٥٤) وما بعدها.

(٣) اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة (رقم ١٨٢٧).

وروى كذلك بسنده عن عمر بن الخطاب (ص٦٠) قال: ((أيها الناس، إن هذا القرآن كلام الله عز وجل فلا أعرفن ما عظمتموه على أهوائكم. فإن الإسلام خضعت له رقاب الناس فدخلوه طوعا وكرها، وقد وضعت لكم السنن فلم يترك لأحد مقالا، إلا أن يكفر عبد عن عمد، فاتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، اعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه)) أهـ.

وروى اللالكائي[1] بسنده عن إبراهيم النخعي قوله: ((لفتنة المرجئة أخوف على هذه الأمة من فتنة الازارقة)) أهـ.

وقال الزهري-رحمه الله-: ((ما ابتدعت في الإسلام بدعة أضر على الملة من هذه يعني المرجئة))[2].

وقال أيوب لسعيد بن جبير: لا تجالس المرجئة، ولما رآه مجالسا أحدهم نهاه [3].

وسئل ربيعة شيخ مالك عن قوله تعالى: ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى ؟ فأجاب: ((الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق))[4].

ومثله ما صح عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة أنه دخل عليه رجل في المسجد وهو يملي فيه حديث النبي ﷺ وقال : الرحمن على العرش استوى كيف استوى ؟ فأطرق رأسه حتى علته الرحضاء أو غشي عليه، فلما أفاق قال: أين السائل، ثم قال الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدع فأمر فأُخرج من المسجد .

---

(١) (رقم ١٨٠٦)، وعبد الله بن أحمد (١/٣١٣)، والآجري في الشريعة (ص١٤٣).

(٢) الشريعة للآجري (ص١٤٤).

(٣) اللالكائي (رقم ١٨١٠٩)، والشريعة (ص١٤٤).

(٤) رواه اللالكائي (رقم ٦٦٥)، وروى نحوه عن مالك (٦٦٣-٦٦٤).

وعن ابن الديلمي قال : وقع في نفسي شئ من القدر فأتيت أبي بن كعب فقلت له: يا أبا منذر انه وقع في نفسي شئ من القدر وقد خشيت أن يكون فيه هلاك ديني، فحدثني من ذلك بشيء لعل الله أن ينفعني. فقال: ((لو عذب الله أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا من أعمالهم، ولو كان لك مثل أحد ذهبا فأنفقه في سبيل الله، ما قبل الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطئك لم يكن ليصيبك، فإنك إن مت على غير هذا دخلت النار. ولا عليك أن تأتى عبد الله بن مسعود فتسأله. قال: فأتيته فأجاب بمثله، ثم حذيفة بن اليمان فأجابني بمثلهما، ثم زيد بن ثابت فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم)) أن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه .....وساقه[1].

- وقال ابن مسعود: ((ما كان كفر بعد نبوة إلا كان معه تكذيب بالقدر))[2].

-وقال ابن عباس: ((القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وآمن بالقدر كان كفره بالقضاء، نقضا للتوحيد، ومن وحد الله وآمن بالقدر فإن العروة الوثقى لا انفصام لها))[3]

- وسبق قول عمر بن عبد العزيز في القدر ورسالته إلى سائله .

- وكذا قول الشعبي في مخاز الرافضة .

- وهذا قليل من كثير مما ورد عن القوم وجمعه ومضنته كتب أصول السنة كالسنة لابن عاصم، وعبد الله بن احمد، وكتب عثمان الدارمي، والشريعة للآجري، والإبانة لابن بطة، وشرح أصول السنن للالكائي.

- وفي الجملة فموقف السلف من البدع في هذه النقاط مجملة:

---

(١) روى قطعة منه مسلم في أول صحيحه عن ابن عمر، ورواه أبو داود (رقم ٤٦٩٩)، واللالكائي (رقم ١٠٩٣، ١٢٣٢، ١٢٣٩)، والآجري (ص٢٠٣).

(٢) رواه الآجري في الشريعة (ص ٢٠٤).

(٣) رواه اللالكائي (رقم ١٢٢٤)، والآجري في الشريعة (ص٢١٣).

١- جهادهم باللسان والسنان، كما وقع من الصحابة للخوارج ولغلاة الرافضة. وفي الجملة تنوعت مواقفهم حسب كل عصر ما يناسبه، وحسب كل قضية وما يلازمها ويلابسها في الفكرة والواقع، بما يقطع شرها ويحد خطرها.

٢- التحذير من المراء والجدل وبيان الغلو وتوضيحه في المسائل العينية والتحذير من طوائفه.

٣- النهي عن مخالطة أهل البدع والجلوس والحديث معهم.

٤- هجر أهل البدع وعدم نكاحهم والصلاة عليهم.

٥- بيان خطرهم وعظم فتنتهم.

٦- إلزامهم بألفاظ قليلة الكلمات -عظيمة المعاني والدلالات، وذلك فمن كان سائلا ومسترشدا. إلى غير ذلك مما غاب عن البال، أو ند عن القلم.

وصلى الله على رسوله واله وصحبه وأنبياء الله وسلم جميعاً

